

المقدمة:

مرحباً بالجميع. شكراً لانضمامكم إلينا في اللقاء اليومي لـ "عيون على غزة". اليوم لا يمكننا أن نفتتح اللقاء دون الإشارة إلى القصف المروّع على مستشفى ناصر في خان يونس، حيث تم استهداف الطواقم الطبية وقُتل العشرات، من بينهم أيضاً أربعة مصورين صحفيين. هذا القصف هو مشهد آخر من مشاهد العنف المروّع الذي تمارسه إسرائيل ضد من يمثلون أعيننا: الصحفيون والمصورون وكل من ينقل لنا من غزة ويروي للعالم الحقيقة. لكن ليس غزة وحدها في العناوين، بل أيضاً الضفة الغربية، حيث يستمر العنف اليومي الذي يدمّر حياة ومجتمعات. آخرها اقتلاع آلاف الأشجار في المغير بأمر من جنرال يحمل اسماً (كم هو ساخر) "بلوط". اليوم معنا لإلقاء الضوء على الضفة الناشط إيتامار شبيرا، وهو ناشط في منظمة "وجود حام" وكذلك باحث يدرس عمل المجموعة كأنثروبولوجي. سيتحدث إلينا إيتامار عن نشاطات "وجود حام" في مسافر يطا. شكراً جزيلاً لإيتامار لانضمامكم إلينا اليوم.

المحاضرة:

مرحباً، سعيد برؤيتكم جميعاً. شكراً لحضوركم، وكذلك شكراً لكل من ينظم "العلم الأسود". من الجيد أن نعرف أن هناك في الأكاديمية صوتاً لا يتنكر لما يحدث في غزة. ساعدتكم اليوم قليلاً عن الضفة، لكن سأركز بشكل خاص على مسافر يطا. سأشارككم شاشتي لتروا الموقع على خريطة "بتسيلم" التفاعلية: هذه هي الضفة الغربية، هنا القدس في الوسط، هنا الخليل، وهنا ما يُسمى جنوب جبل الخليل أو مسافر يطا. هذه الخليل، وهذه بلدتا يطا والسموع، بلدتان كبيرتان نسبياً تقعان ضمن المنطقة A. المنطقة التي تُسمى مسافر يطا هي امتداد ليطا، وهي مميزة بهذا الدائرة. ترون أن معظمها ملوّن بالأزرق والأبيض. الألوان تمثل المنطقة C، أي تحت سيطرة مباشرة لإسرائيل، مقابل المناطق A و B الملونة بالبنّي، مثل يطا والسموع، اللتين تقعان تحت حكم الجيش ولكن - في كثير من الأحيان بشكل غير مباشر - أيضاً تحت السلطة الفلسطينية. في الواقع، منذ أوُسُلو، منذ تسعينيات القرن الماضي، أصبحت مناطق A التي تضم 96-97% من سكان الضفة الفلسطينية ولكنها لا تشكل سوى 18% من الأرض، منفصلة أكثر فأكثر عن الفلسطينيين في المنطقة C، وهي منطقة خُصصت أيضاً للاستيطان، وللاحتياطي الاستيطاني، وللاستخدامات العسكرية. في الحقيقة، كل الأراضي المفتوحة والمحميات الطبيعية الإسرائيلية تقع في المنطقة C. وهكذا أيضاً الفلسطينيون في تلك المناطق، مثل مسافر يطا، أصبحوا أكثر انفصالاً عن قراهم الأم التي تحولت مع الوقت إلى بلدات كبيرة وحتى مدن. المداخل والمخارج دائماً تحت سيطرة الجيش، أحياناً مباشرة، وأحياناً يمكن المرور، لكن أحياناً يتم إغلاقها. شيئاً فشيئاً، أصبح هذا المكان أكثر عرضة للمستوطنين ولنشاط الجيش.

ما يحدث فعلياً في مسافر يطا هو أنه منذ أوائل الثمانينيات - تحديداً عام 1980 - بدأ أرئيل شارون بشكل خاص، وكذلك الحكومة بشكل عام، بالحديث عن كيفية توطين هذه المنطقة بالمستوطنات. أولى المستوطنات كانت كرم، سوسيا، وماعون التي أُنشئت في عامي 1980-81 كمستعمرات "ناحال" في البداية، أي "نقاط ناهال العسكرية الزراعية". بسرعة تحولت هذه النقاط إلى مستوطنات دائمة، ومنها بدأت تنشأ بؤر استيطانية داخل أراضي الرعي الخاصة بالسكان. سكان مسافر يطا هم أساساً رعاة أغنام، إضافة إلى زراعة بسيطة من الزيتون، وقليل من القمح للرعاة. فعلاً هم أناس يعيشون بأبسط أشكال الإنتاج الرأسمالي. المنطقة هشة جداً أيضاً من ناحية البنية التحتية للمياه والكهرباء. لا توجد شبكات مياه أو كهرباء متصلة بالقرى الفلسطينية، بينما المستوطنات القريبة موصولة بكل ذلك. أحياناً يجلس الرعاة المحليون بجوار أعمدة الكهرباء وفوق أنابيب المياه التي تمر تحت بيوتهم، يسمعون تدفق المياه، بينما هم يعيشون في صحراء جافة. دون أن نأخذ في الاعتبار أنهم بالطبع كانوا هناك أولاً. هذا الانقطاع عن البنية التحتية وعن بقية الفلسطينيين في المنطقة يمنح الجيش والمستوطنين القدرة على تقليص مساحات أراضيهم تدريجياً، وفي النهاية تهجيرهم، لأنه عندما لا يتوفر لك ماء ولا كهرباء، وفي ظل هدم المنازل بشكل مستمر من قبل "الإدارة المدنية"، يصبح من السهل إجبار الناس على الرحيل. ففي غياب الماء والمنازل يصبح البقاء أصعب بكثير. في نضالهم منذ الثمانينيات للبقاء على أرضهم في مسافر يطا، عاشوا عزلة شديدة.

عام 1999 كان أول تهجير جماعي حقيقي، حيث طُرد 700 شخص من مسافر يطا إلى داخل يطا نفسها. لكن الفلسطينيين بدأوا بالعودة مباشرة بعد التهجير. في 1997 - ليس جميعهم طبعاً - بدأ بعضهم بالعودة تدريجياً لبناء المنازل مجدداً وحفر آبار المياه ومحاولة جمع المياه - وكل ذلك كان يُهدم. طريقة مواجهتهم أو مقاومتهم اعتمدت على المبدأ الفلسطيني المعروف بـ "الصمود"، أي البقاء متجذراً في الأرض. وهو أسلوب غير عنيف بالعموم، يركز على الحياة نفسها. هناك شعار معروف: "الوجود مقاومة" أو "المقاومة هي الوجود". أي أن طريقة المواجهة هي ببساطة الاستمرار في العيش، البقاء على الأرض، الاستمرار بالذهاب إلى أراضي الرعي، الاستمرار بالزواج، إنجاب الأطفال، حفر بئر ماء آخر، زراعة القمح مرة أخرى، وما شابه. لكن منذ عام 1997 أصبح الأمر أصعب، لأن الجيش بدأ ينفذ عمليات طرد جماعي. هذه كانت فترة أوُسُلو، وفترة أصبحت فيها مناطق C مستهدفة بشكل أكبر من قِبل دولة إسرائيل، بسبب شعور المستوطنين بالإلحاح: "ها هي الدولة الفلسطينية ستقوم قريباً، وكل ما لن نستولي عليه الآن سيضيع". هذا الشعور بالإلحاح ثُرجم من قِبل المستوطنين إلى مزيد من التوسع في الأرض، بمرافقة الجيش طبعاً، لأن دور الجيش هو حماية اليهود في الضفة. وهكذا يتقدم المستوطنون خطوة إضافية، يسيطرون على جبل آخر، تلة أخرى، والجيش يرافقهم. عندما يأتي الرعاة الفلسطينيون إلى مكان ما، ينزل إليهم المستوطن ويتردهم بسهولة، لأنهم غير مسلحين. بينما

المستوطن مسلح وهم يعرفون ذلك. وغالباً ما يحدث أنه عندما يرفضون المغادرة، يتصل المستوطن مباشرة بالجيش، فيأتي جيب عسكري ويعتقل الراعي، أو يفرّ هو بنفسه. هذه هي الطريقة – لنقل الأقل عنفاً – للتوسع على حساب المجتمعات، وهي مجتمعات لم تكن يوماً منخرطة بعمق في النضال المسلح الفلسطيني. أي أنه من السهل السيطرة على هذه المناطق.

[...]

منذ عام 1999 بدأ نشطاء إسرائيليون، الذين اجتمعوا عام 2000 في مجموعة تُسمى "تعايش"، بالمجيء واستعمال امتيازاتهم كإسرائيليين، كأشخاص لديهم حقوق في دولة ديمقراطية لليهود، ليقفوا في وجه الجيش والمستوطنين قائلين: "لحظة، هذه الأرض ليست لك! لحظة، لا يمكنك أخذها! لحظة، أنا أصورك! لا يمكنك أن تبرّر ذلك." فجأة وُجدت عين خارجية متميزة تستطيع أن تغيّر الوضع. واليوم هناك جيل جديد يعيش في تلك القرى وهو ليس جيل "تعايش" الذين أصبحوا اليوم بين الخمسين والسبعين. هذا الجيل الجديد، جيل الشباب، يعيش داخل القرى ويناضل بشكل مختلف وبطريقة مثيرة جداً. وأعتقد أن لديه أيضاً نوعاً من الفاعلية الجميلة في نشاطاته. هؤلاء الإسرائيليون، يمكن القول إنهم متميزون بالامتياز، كثير منهم أشكناز علمانيون، وأيضاً يهود أمريكيون من الخارج. وهناك انفتاح عام للآخرين أيضاً، وأشخاص ينتمون لما يُسمى "اليسار الراديكالي"، بينهم كثير من الحُرّين جنسياً، وأشخاص يدمجون بين أنواع مختلفة من النضالات، مثل النضال الكويري في القدس، والنضال من أجل تحرير الفلسطينيين، وغير ذلك.

أعتقد أن من المثير جداً رؤية هذا الجيل لأنه مختلف تماماً عن طريقتنا – نحن، الأجيال الأكبر – في فهم السياسة وكيف تعمل السياسة. لديهم قدرة على استخدام الجسد من دون كثير من التنظير حول كيف سيمنع ذلك أو كيف سيحدث أو كيف سيساعد، بل هي سياسة الحضور، أي وضع جسدك في الميدان والوجود فيه، ومن خلال ذلك فهم تعقيدات الاختلافات بين امتيازاتنا وامتيازاتهم، بما في ذلك الأبعاد الثقافية التي تنشأ من ذلك. وهكذا تصبح الفاعلية في المرتبة الثانية، لكن في الواقع – بطريقة معاكسة – تصبح أكثر فاعلية، لأن لديهم قدرة حقيقية على الوصول قريباً جداً من المجتمعات.

[...]

روتين اليوم هو نوع من الإقامة في القرى المختلفة هناك. يوجد حوالي عشرين قرية، وثلاث قرى أكبر نسبياً. في هذه الأماكن يجلسون، ودائماً في حالة ما يُسمى "الاستجابة السريعة" (rapid response). هناك سيارة للنشطاء، ويقفزون من مكان لآخر. في كل مواجهة بين الجيش أو المستوطنين مع أحد الرعاة. إذا كان داخل البيوت – اليوم هناك اقتحامات أكثر داخل القرى والمنازل، وليس فقط أثناء الخروج إلى المراعي. وعندما نصل إلى هناك – دائماً يخرج اثنان على الأقل، أحياناً أكثر – يحدث فوراً نوع من التغيير، لنقل في ميزان القوى. لأنه أمام مستوطن، حتى لو لم يكن مسلحاً، في عمر 16 عاماً، يمكن لعائلة كاملة أن تختبئ داخل خيمة خوفاً من أنه إذا حدث أي احتكاك، سيأتي الجنود مباشرة. وقد ينتهي الأمر بأحداث قاسية جداً. لكن عندما أصل أنا مع آخر، فجأة ذلك الفتى مع الغنم يصبح أقل قوة بكثير. هذه هي الروتين فعلياً، وهناك الكثير من الأوقات "الميتة"، أو بالأحرى "الحية"، حيث يتم ببساطة التواصل بين الناس، الجلوس لشرب الشاي، الأفراح، الجنائز، وأحداث كهذه.

[...]

منذ السابع من أكتوبر، أحد الأمور المركزية التي حدثت، حتى قبل ما حدث عندنا، هو تفكك الجيش الذي كان أصلاً مُداراً إلى حد كبير من قبل المستوطنين. هناك بالطبع "الحراس الأمنيون" (רמ"ש"צייח) الذين يُمولون ويُسلحون من قبل الجيش، لكنهم مستوطنون من نفس المكان. لذلك هناك أمور "بين بين"، بين المستوطنين والجنود. كان هناك دائماً سيطرة أكبر للمستوطنين على أوامر ما يجب أن يفعله الجيش في الميدان. بعد السابع من أكتوبر اختفت فعلياً سلسلة القيادة، من يهودا فوكس الذي كان وقتها قائد المنطقة الوسطى، وصولاً إلى الجنود في الميدان. الجنود في الميدان أصبحوا هم "قوات الدفاع الإقليمية"، أي مستوطنون جُنّدوا، يلبسون الزي العسكري، مسلحون من قبل الجيش، ولديهم مركباتهم الخاصة. جميع الجنود انتقلوا إلى غزة في البداية في الأشهر الأولى، وأصبح الجيش فعلياً هو المستوطنين في الميدان. أمام هذا الوضع كان على الفلسطينيين أن يجدوا طرقاً جديدة للمواجهة، لأنه لم يعد لدى هؤلاء المستوطنين نفس المخاوف التي كانت لديهم من الجيش، ولا نفس "المنطق النظامي" لأفعالهم. هذا هو الأمر المركزي الذي حتى اليوم لم يتغير بشكل جوهري. أعتقد أن ما يحدث اليوم، بعد عدة أشهر من البداية، هو أن الجيش الذي عاد ليكون صاحب سلسلة قيادة، فهم الآن أنه لا يمكن أن يكون معارضاً بأي شكل. النتيجة هي أن القيادة الوسطى اليوم تحمل نفس عقلية المستوطنين تماماً. أي أنه في الضفة، الانقلاب قد حدث بالكامل بالفعل.